2009 04 11 - 0002

«ذكريات» حرب

أذكر الحرب الأهلية تماماً، كأنها لا تزال تسري في عروقي.

أذكر كيس الزبالة يطير من الطابق العاشر في البناية المقابلة لبنايتنا، ليصيب المزبلة التي تشكّلت في أول صباح غاب عنه عمّال البلدية، وباتت مع مرور السنوات ثابتةً كمعلم أثري في الشارع العريض. وررر، يطير الكيس ويرتطم بالأرض فتتناثر محتوياته، من حامض معصور وتفل قهوة وأعقاب سجائر، وسواها مما لفظه البيت. لحسن حظك أن مرورك اليومي لم يحل في هذه اللحظة. لكن، للأسف، ستتكوّم على الأرض بعد قليل، لأن الأرض التصقت بما ألقي عليها، وبات إسفلت الشارع (لاستحالة وجود الأرصفة) لزجاً متآمراً ضدك. كل شيء يتآمر ضدك، في زمن الحرب.

وأذكر أكياس الرمل، السواتر الترابية، التي خرجت عن كونها أمل حياة أخير للمتراشقين بالرصاص، وباتت ضرورةً على شرفة بيوت كثيرة، خاصة تلك التي تحل في طوابق مرتفعة. واستكانت هذه السواتر لسنوات طويلة أمام واجهات المحال التجارية، تدّعي حمايتها من الرصاص ومن السرقة. أستغرب كثيراً اليوم المرور أمام أي واجهة زجاجية، في لبنان وخارجه، أمّن صاحبها على تركها هكذا، بلا حماية تذكر. هل نسي الحرب؟

وأذكر زحمة السير التي لا تُحلّ ولو عقدة صغيرة فيها لساعات طويلة. أما السبب وراء الزحمة فهو عادةً ما يفجّر غضب أهلي: أتى واحد في وجه واحد، ووجهة السير لا تعني شيئاً في زمن الحرب، ورفض الأول أن يفسح مجالاً للثاني، والثاني بادله الرفض، ودخلت سيارة ثالثة على الخط تحاول التمرد، وباتت الكماشة محكمة على أعناقنا جميعاً. أعناقنا مكسورة تتدلى من أكتافنا في زمن الحرب.

لكن، لماذا يرفضان إفساح المجال؟ لأن الحياة حينها لم تكن تعترف بحقوق ولا بواجبات ولا بحسن سلوك ولا بما فيه خير الجميع. الحياة في زمن الحرب تبدأ من استباحة كل شيء، ومنح الذات كامل الحقوق، في مواجهة الآخرين ـ الذباب. في شوارع الحرب، يصبح «الآدمي» ممسحة، ويبقى لسنوات طويلة كذلك.

في شوارع الحرب، يحق للعسكري الذي ارتجل حاجزاً أن يسألك ١٥ سؤالاً، فتجيب، وإن أجبت «صح» على الأسئلة كافة، يخترع سؤالاً من نوع: «شو رقم سيارتك؟». إن لم تكن تحفظه، يرميك أرضاً ويركلك. وإن كنت قد حفظته من بعد هذه التجربة وسمّعته «صح» في صدفة ثانية، يتأفف الميليشياوي ويأمرك بالتوجه مباشرة إلى بيتك. بيتك، في زمن حرب الشوارع، لا بد أن يكون على مفترق بين حزب وآخر، يتصارعان دائماً على زاروب، ولا يخجل الطرفان من تصارعهما على زاروب، ويملآن حياتك بالأناشيد التي تبثها مكبرات الصوت، للتأكيد على أحقية هذا في امتلاك الزاروب. هذا أو ذاك. ففي زمن الحرب، لا يخجل أحد من شيء، بينما تتلقى أنت الوقاحة كفاً يطبع على وجنتك، في كل صباح.

وأذكر الكهرباء.. بالكاد أذكرها. كأنها حلم أو طيف ألف له الأولاد أغنية، ننشدها كلما أضاءت في البيت لمبة، وتلك صدفة نادرة. أذكر القراءة على الشمعة، والتحضير للامتحان على شمعة، والاستحمام بالدلو، على شمعة. ثم أذكر بطارية السيارة التي استحالت مصدراً وحيداً للطاقة، نصلها بتلفزيون الأبيض والأسود الصغير، لنسمع أخبار الموتى ونرى صورهم، قبل أن تفرغ طاقتها، فنركب السيارة في رحلة مخاطرة ليلية، على كورنيش البحر الخاوي من البشر ومن الحيوانات، على الأرض الملأى بحفر القنابل والإهمال، في عتم ليل خانق تعبق فيه رائحة البارود دائماً. نسير كأننا موتى، ونخشى الكلام كي لا يشي همسنا بوجود حياة. يتمنى المرء ألا يراه أحد، في زمن الحرب.

أخاف على كل من أحب من الموت اليوم، لأني عشت موتهم وموتي حدثاً يومياً في الحرب. أخاف من كل سيارة أن تنفجر. وأخاف من كل رجل شرس أن يضربني. وأخاف من الإهانة، تصيبني فجأة من حيث لا أدري.

لم يسرق أهلي الكهرباء، فعشنا في العتم. والمياه كانت مقطوعة، فملأنا الغالونات وحملناها من الشركة عبر الشوارع وأدراج البناية إلى البيت. وخسرت الليرة قيمتها، فكدنا نخسر قيمتنا كبشر. ولم يبق لنا إلا التمسك بما ليس موجوداً أبداً بالنسبة إليّ، ولم تكن لي معرفة به إلا عبر ذكريات الأهل: تمسّكنا بالحقوق والواجبات، بصفتنا مواطنين في دولة، ولم نكن مواطنين وإنما أشباح نتمنى ألا يرانا أحد كي لا يعتدي علينا، ولم تكن دولة.. كانت مساحة غير صالحة للعيش.

كلما قرر بطل الاحتكام إلى القوة للحكم، أشعر بأني أستحيل جنيناً في بطن أمي. أقفل جسمي على نفسي، أرتجف. أخاف الموت كثيراً، لكن أكثر ما أخشاه هو الظلم.

أموت في كل يوم أسمع فيه سياسياً يدّعي البطولة والسمو، فهو سيدوسني بعد قليل. وأموت في كل يوم أرى فيه الكره يطفئ العيون، فهي روح الإنسان، إن انطفأت، سوف يعتدي على روحي.

في ذكرى الحرب، أكره الحرب. وفي حاضر السلم المفخخ، أعيش الأيام بسعادة قصوى. أحتضن الشمس في كل صباح، أتريّض على الكورنيش كأني أطير في السماء، وأشرب القهوة على الرصيف كأني أشرف على العالم.

وأريد لهذه الحال أن تبقى على ما هي عليه.. ولو كانت أضعف الأيمان. فلو كانت الحال حرباً، لكنت قد مت من زمان، واستحلت شبحاً يطوف في شوارع عاصمتي المفضلة في العالم، ويبكي حياة فُرض عليه التفرّج على إمكانياتها، وعيش موتها كحدث يومي استثنائي، لا يحدث في الأيام سواه.

سحر مندور